الدنيا وهو الرزاق ، فلابد أنْ يَحْبُونَا فى الآخرة ، لكن لم تتعرض الآيات للقول المقابل من المؤمنين ، إنما جاء الرد عليهم من طريق آخر ، فقال تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا(١) وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾

كم : خبرية تدل على الكثرة التى لا تُحصَى ، وأن المقول بعدها وقع كثيراً ، كأن يقول لك صاحبك : أنت ما عملتَ معى معروفاً أبداً ، فتُعدِّد له صنائع المعروف التى أسديتها إليه ، فتقول : كم فعلتُ معك كذا ، وكم فعلتُ كذا .

والقرن : هم الجماعة المتعايشون زماناً ، بحيث تتداخل بينهم الأجيال ، فترى الجدَّ والأب والابن والحفيد معاً ، وقد قدَّروا القرن بمائة عام . كما يُطلَق القرن على الجماعة الذين يجتمعون على مُلك واحد ، أو رسالة واحدة مهما طال زمنهم كقوم نوح مثلاً .

والأثاث : هو فراش البيت ، وهذا أمر يتناسب وإمكانات صاحبه .

والرِّئْى : على وزن فِعْل ، ويراد به المفعول أى : المرئى ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات] فذِبْح بمعنى : مذبوح .

---

(١) الأثاث : المال الكثير أو متاع البيت لا واحد له من لفظه ، وقيل : واحدته أثاثة [القاموس القويم ١/٦] .

وورد فى قراءة أخرى[1] : (أحْسَنُ أثاثًا وزِيًا) وهى غير بعيدة عن المعنى الأول ؛ لأن الزىّ أيضاً من المرئى ، إلا أنه يتكوّن من الزى والذى يرتديه ، والمراد هنا جمال الشكل والهيئة ونضارة الشخص وهندامه ، وقد افتخر الكفار بذلك ، فى حين كان المؤمنون شُعْثًا غُبْرًا يرتدون المرقَّع والبالى من الثياب .

وقد جاء الاختلاف فى بعض ألفاظ القرآن من قراءة لأخرى ؛ لأن القرآن الكريم دُوِّن أول ما دُوِّن غير منقوط ولا مشكول اعتماداً على مَلَكَة العربى وفصاحته التى تُمكِّنه من توجيه الحرف حَسْب المعنى المناسب للسياق ، وظل كذلك إلى أن وضع له العلماء النقاط فوق الحروف فى العصر الأموى . فمثلاً النَّبْرة فى كلمة دون نقط يحتمل أنْ تُقرأ من أعلى : نون أو تاء أو ثاء . ومن أسفل تُقرأ : باء أو ياء .

والعربى لمعرفته بمواقع الألفاظ يستطيع تحديد الحرف المراد ، فكلمة (رِئْيًا) تقرأ (زيا) والمعنى غير بعيد .

ومن ذلك كلمة ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴿٩٤﴾ ﴾ [النساء] قرأها بعضهم (فتثبتوا) وكلمة ﴿ صِبْغَةَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [البقرة] قرأها بعضهم (صنعة) ، ودليل فصاحتهم أن الاختلاف فى مثل هذه الحروف لا يؤدى إلى اختلاف المعنى .

لذلك ، كان العربى قديماً يغضب إنْ كُتب إليه كتاب مُشكل ، لأن تشكيل الكلام كأنه اتهام له بالغباء وعدم معرفته باللغة . ومن هنا وجدنا العلماء الذين وضعوا قواعد اللغة ليسوا من العرب ؛ لأن العربى فى هذا الوقت كان يستنكف أن يضع للغة قواعد ، فهى بالنسبة له

---

(١) هى قراءة ابن عباس وأبىّ بن كعب وسعيد بن جبير والأعسم المكى . قال القرطبى فى تفسيره (٤٣١٥/٦) : « هو الهيئة والحسن ، ويجوز أن يكون من زويت أى : جمعت ، فيكون أصلها زويا فقلبت الواو ياء » .

مَلَكَة معروفة لا تحتاج إلى دراسة أو تعليم . أما الأعاجم فلما دخلوا الإسلام ما كان لهم أنْ يتعلَّموا لغته إلا بهذه الدراسة لقواعدها .

والحق تبارك وتعالى يقول هنا : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ [مريم] لأنهم قالوا : ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريم] يريد أنْ يُدلِّل على أنهم حمْقَى لا ينظرون إلى واقع الحياة ليروا عاقبة مَنْ كانوا أعزَّ منهم مكاناً ومكانة ، وكيف صار الأمر إليهم؟

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يردُّ على الكفار ادعاءهم الخيرية على المؤمنين ، فهذه الخيرية ليستْ بذاتيتكم ، بل هي عطاء من الله وفتْنة ، حتى إذا أخذكم أخذكم عن عزَّة وجاه ؛ ليكون أنكى لهم وأشدَّ وأغيظ ، أما إنْ أخذهم على حال ذلَّة وهوَان لم يكن لأخذه هذا الأثر فيهم .

فالحق سبحانه يُملي لهم بنعمه ليستشرفوا الخير ثم يأخذهم ، على حَدِّ قول الشاعر[1] :

كَمَا أبرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمامَةٌ   فلَمَّا رأوْهَا أقْشَعَتْ وتجلَّتِ[2]

فأطمعهم في البداية ، ثم أخذهم وخيَّب آمالهم في النهاية .

وضربنا لذلك مثلاً بالأسير الذي بلغ به العطش مَبْلغاً ، فطلب الماء ، فجاءه الحارس بالماء حتى كان على فيه ، واستشرف الريَّ منعه وحرمه لتكون حسرته أشد ، وألمُه أعظمَ ، ولو لم يأته بالماء لكان أهونَ عليه .

(١) هو : كثير بن عبد الرحمن أبو صخر الخزاعي ، شاعر متيم مشهور ، من أهل المدينة أكثر إقامته بمصر ، كان مفرط القصر دميماً ، في نفسه شمم وترفع ، يقال له « كثير عزة » وهي عزة بنت جميل الضمرية ، كان عفيفاً في حبه لها . توفي عام (١٠٥هـ) . الأعلام للزركلي (٥/٢١٩) .

(٢) ديوان كثير (ص ١٠٧) وأورده شهاب الدين الحلبي (ت ٧٢٥ هـ) في « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » (ص ١٢١) . وأقشعت الغمامة : انكشفت وذهبت .

إذن : حينما تُجرون مُقارنة بـينكم وبين المؤمنين وتُعيِّرونهم بما معكم من زينة الدنـيا ، فقد قـارنتم الوسائل وطرحـتُم الغايات ، ومن الغبـاء أنْ نهـتم بالوسـائل وننسى الغـايات ، فلكي تكون المـقـارنةُ صحيحة فقارنوا حالكم بحال المؤمنين ، بداية ونهاية .

ومثال ذلك : فلاح مجتهد فى زراعـته يعتنى بها ويُعفِّر نفسه من تراب أرضـه كل يوم ، وآخـر ينعَم بالثـيـاب النظيـفـة والجلوس على المقهى والتسكع هنا وهناك ، وينظر إلى صاحـبه الذى أجهده العمل ، ويرى نفسه أفضل منه ، فإذا مـا جاء وقت الحصاد وجد الأولُ ثمرة تعبه ونتيجة مجهوده ، وجلس الآخر حزيناً محروماً . فلا بُدَّ أن تأخذ فى الاعتبار عند المقارنة الوسائل مع الغايات .

لذلك وُفِّق الشاعر حين قال :

ألاَ مَنْ يُرِينِى غَايتى قَبْل مذْهَبِـى ... ومِنْ أيْنَ والغَايَاتُ بَعْد المذَاهِبِ ؟

وقد عزل الكفار الوسيلة فى الدنيا عن الغاية فى الآخرة ، فتباهوا وعَيَّروا المؤمنين : ﴿ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) ﴾ [مريم]

وفى قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ (٢٤)﴾ [العنكبوت]

وهكذا اتفقـوا على الإحراق ، ونجَّى الله نبيـه وخيَّب سَعْـيهم ، ثم كانت الغاية فى الآخرة :﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥)﴾ [العنكبوت]

فكان عليهم ألاَّ ينظروا إلى الوسيلة منفصلةً عن غايتها .

وهنا يردُّ الحق ـ تبارك وتعالى ـ على هؤلاء المغترِّين بنعمة الله :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا (٧٤) ﴾ [مريم] وكما قال فى آيات أخرى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا(١) الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) ﴾ [الفجر]

وهلاك هؤلاء وأمثالهم سَهْل لا يكلف الحق سبحانه إلا أنْ تهُبَّ عليهم عواصف الرمال ، فتطمس حضارتهم ، وتجعلهم أثراً بعد عَيْن .

فدعاهم إلى النظر فى التاريخ ، والتأمّل فى عاقبة أمثالهم من الكفرة والمكذبين ، وما عساه أنْ يُغنى عنهم من المقام والندىّ الذى يتباهون به ، وهل وسائل الدنيا هذه تدفع عنهم الغاية التى تنتظرهم فى الآخرة ؟

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يردّ عليهم بكلام نظرى يقول : إن عاقبتكم كذا وكذا من العذاب ، بل يعطيهم مثالاً من الواقع .

ويخاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ (٧٧) ﴾ [غافر] أى : من القهر والهزيمة والانكسار ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر] فمَنْ أفلت من عذاب الدنيا ، فلن يفلت من عذاب الآخرة .

والقرآن حين يدعوهم إلى النظر فى عاقبة من قبلهم ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ (٧٤) ﴾ [مريم] فإنما يحثُّهم على أخْذ العِبْرة والعظَة ممَّنْ سبقوهم ، ويستدل بواقع شىء حاضر على صِدْق غَيْبٍ آت ، فالحضارات التى سبقتهم والتى لم يوجد مثلها فى البلاد ، وكان من

(١) جابه يجوبه : قطعه . أى : أن ثموداً قطعوا الصخر ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم . [القاموس القويم ١/ ١٢٥] .

صفاتها كذا وكذا ، مـاذا حدث لهم ؟ فهل أنتم أشدّ منهم قوة ؟ وهل تمنعون عن أنفسكم ما نزل بغيركم من المكذّبين ؟

هذا من ناحيـة الواقع ، أما الغـيب فيعـرض له القرآن فى مشـهد آخـر ، حيث يقـول تعـالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣)﴾ [المطففين]

هذا المشـهد فى الدنيا ، فمـا بالهم فى الآخرة ؟ : ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥)﴾ [المطففين]

ثم يخاطـب الحق ـ سبحـانه وتعالى ـ المـؤمنين فيـقول : ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

يعنى : بعد مـا رأيتموه من عـذابهم ، هل قدرنا أنْ نُجازيهم عـمَّا فعلوه بكم من استهزاء فى الدنيا ؟ وعلى كُلٍّ فإن استهزاءهم بكم فى الدنيا موقوت الأجل ، أما ضِحْككم الآن عليهم فأمر أبديّ لا نهايةَ له . فأيُّ الفريقين خَيْر إذن ؟

فـإياكم أنْ تغـرّكم ظواهر الأشـياء ، أو تخـدعكم بَرقـات النعـيم وانظروا إلى الغايات والنهايات ؛ لذلك يقول سبحانه :

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ[1] الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦)﴾ [الكهف]

---

(١) اختلفت أقوال العلماء فى ماهية الباقيات الصالحات على أقوال ، ذكرها ابن كثير فى تفسيره (٣/٨٥ - ٨٧) :
- قال ابن عباس : هى الصلوات الخمس . وفى قول له : هى الكلام الطيب .
- قال مجاهد : هى سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .
- وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هى الأعمال الصالحة كلها .

وفي سورة الأعراف لقطة أخرى من مواقف القيامة ، حيث يقول أصحاب الأعراف لأهل النار : ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأعراف] ثم يلتفتون إلى المؤمنين في الجنة : ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف] فأين أنتم منهم الآن ؟

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾

قوله : (قل) أمر لرسوله ﷺ : ﴿مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴿٧٥﴾﴾ [مريم] أي : يُمهله ويستدرجه ؛ لأنه ربٌّ للجميع ، وبحكم ربوبيته يعطي المؤمن والكافر ، وكما يعين المؤمن بالنصر ، كذلك يعين الكافر بمراده ، كما في قوله تعالى : ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴿١٠﴾﴾ [البقرة]

لأنهم ارتاحوا إليه ، ورَضُوا به ، وطلبوا منه المزيد .

﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ ﴿٧٥﴾﴾ [مريم] أي : في الدنيا وزينتها ، كما قال : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى]

وفي موضع آخر يقول : إياك أنْ تعجبك أموالهم وأولادهم ؛ لأنها فتنة لهم ، يُعذّبهم بها في الدنيا بالسَّعْي في جمع الأموال وتربية الأولاد ، ثم الحسرة على فقدهما ، ثم يُعذّبهم بسببها في الآخرة : ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة]

ثم يقول تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ.. (٧٥) ﴾ [مريم]

العذاب : عذاب الدنيا . أى : بنصر المؤمنين على الكافرين وإهانتهم وإذلالهم ﴿ وَإِمَّا السَّاعَةَ (٧٥) ﴾ [مريم] أى : ما ينتظرهم من عذابها ، وعند ذلك: ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) ﴾ [مريم] لكنه علْم لا يُجدى ، فقد فات أوانه ، فالموقف فى الآخرة حيث لا استئناف للإيمان ، فالنكاية هنا أعظم والحسرة أشدّ .

لكن ، ما مناسبة ذكر الجند هنا والكلام عن الآخرة ؟ وماذا يُغنى الجند فى مثل هذا اليوم ؟ قالوا : هذا تهكُّم بهم كما فى قوله تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ[1] وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) ﴾ [الصافات] ، فهل أَخْذهم إلى النار هداية ؟

ثم يلتفت إليهم : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) ﴾ [الصافات]

أى : لم نُجبركم على شىء ، مجرد أنْ أشرْنا لكم أطعتمونا .

لذلك ، سيقولون فى موضع آخر : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

---

(١) قال عمر بن الخطاب فى تأويل هذه الآية : احشروا أمثالهم الذين هم مثلهم ، يجىء أصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر ، أزواج فى الجنة ، وأزواج فى النار . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٨٣) وعزاه لعبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وابن منيع فى مسنده وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى البعث .

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦) ﴾

قلنا : إن للهداية معنيَيْن : هداية بمعنى الدلالة على الخير وبيان طريقه ، وهداية المعونة والتوفيق للإيمان ، فمَنْ صدّق فى الأُولى أعانه الله على الأخرى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

وقوله تعالى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦) ﴾ [مريم] الباقيات الصالحات : هى الأعمال الصالحة التى كانت منك خالصةً لوجه الله : ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦) ﴾ [مريم] هذه هى الغاية التى ننتظرها ونسعى إليها ، فساعةَ أنْ تقارن السُّبل الشاقة فاقْرِنها بالغاية المسعدة ، فيهون عليك عناء العبادة ومشقّة التكليف .

وقوله : ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦) ﴾ [مريم] أى : مرجعاً تُرَدُّ إليه .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) ﴾

نلاحظ هنا أن القرآن لم يذكر لنا هذا الشخص الذى قال هذه

---

(١) **سبب نزول الآية :** عن خباب بن الأرت قال : كان لى دين على العاص بن وائل فأتيته أتقاضاه فقال : لا والله حتى تكفر بمحمد ، قلت : لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث ، قال : إنى إذا متُّ ثم بُعثت جئتنى وسيكون لى ثَمَّ مال وولد فأعطيك فأنزل الله تعالى هذه الآية . أخرجه الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ١٧٣) ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٩٥) كتاب صفات المنافقين .

المقولة ولم يُعيِّنه ، وإنْ كان معلوماً لرسول الله الذى خُوطب بهذا الكلام ؛ وذلك لأن هذه المقولة يمكن أنْ تُقال فى زماننا وفى كل زمان ، إذنْ : فليس المهم الشخص بل القول نفسه . وقد أخبر عنه أنه أمية بن خلف ، أو العاصى بن وائل السَّهْمى .

وقوله تعالى : ﴿أَفَرَءَيْتَ (٧٧)﴾ [مريم] يعنى : ألم ترَ هذا ، كأنه يستدلّ بالذى رآه على هذه القضية ﴿الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا (٧٧)﴾ [مريم] ويروى أنه قال : إنْ كان هناك بَعْثٌ فسوف أكون فى الآخرة كما كنت فى الدنيا ، صاحبَ مال وولد .

كما قال صاحب الجنة لأخيه : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف]

والإنسان لا يعتزّ إلا بما هو ذاتىّ فيه ، وليس له فى ذاتيته شىء ، وكذلك لا يعتز بنعمة لا يقدر على صيانتها ، ولا يصون النعمة إلا المنعم الوهاب سبحانه إذن : فلِمَ الاغترار بها ؟

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا[1] فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ[2] مَّعِينٍ (٣٠)﴾ [الملك]

ويقول : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ اللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨)﴾ [الملك]

ثم يردُّ الحق ـ تبارك وتعالى ـ على هذه المقولة الكاذبة :

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٧٨)﴾

---

(١) غار الماء : ذهب فى الأرض . فهو الذهاب والضياع النهائى فلا أمل فى عودته للحديقة . [القاموس القويم ٢/٦٣] .

(٢) المعين : الماء المعيون أى : المنظور بالعين الذى تراه العين ظاهراً يجرى على وجه الأرض . [القاموس القويم ٢/٤٦] .

يعنى : أقلْتَ هذا القول مُتطوِّعاً به من عند نفسك ، أم اطلعتَ على الغيب ، فعرفتَ منه ما سيكون لك فى الآخرة : ﴿ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٧٨) ﴾ [مريم] أى : أعطاه الله تعالى عهداً بأن يكون له فى الآخرة كما له فى الدنيا ، فإمّا هذه وإمّا هذه ، فأيُّهما توافرتْ لك حتى تجزم بهذا القول ؟

وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) ﴾ [القلم]

والمراد : مَنْ يضمن لهم هذا الذى يدَّعونه ؟

وقد أخبر النبى ﷺ : « مَنْ أدخل على مؤمن سروراً فقد أخذ العهد من الله »(١) ، « ومَنْ صلى الصلوات بفرائضها وفى وقتها فقد أخذ العهد من الله »(٢).

فمَنْ هؤلاء الذين لهم عَهْد من الله تعالى ألاَّ يدخلهم النار ؟

والعَهْد : الشىء الموثَّق بين اثنين ، والعهد إنْ كان بين الناس فهو عَهْد غير موثوق به ، فقد ينفذ أو لا ينفذ ؛ لأن الإنسانَ ابنُ أغيار ، ويمكن أنْ تحُول الظروف بينه وبين ما وعد به ، أما إنْ كان

---

(١) أورد ابن الجوزى فى « العلل المتناهية » (٢/٥١٤) . طبعة دار الكتب العلمية بيروت من حديث ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : « من أدخل على مؤمن سروراً فقد سرنى ، ومن سرنى فقد اتخذ عند الله عهداً ، ومن اتخذ عند الله عهداً فلن تمسه النار » وهو من طريق الدارقطنى . قال الذهبى فى ميزان الاعتدال (٢/٢٩٣) « خبر باطل متنه» .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٤/٢٤٤) عن كعب بن عجرة قال قال رسول الله ﷺ : « إن ربكم عز وجل يقول : من صلى الصلاة لوقتها وحافظ عليها ولم يضيعها استخفافاً بحقها فله علىَّ عهد أن أدخله الجنة ، ومن لم يصلها لوقتها ولم يحافظ عليها وضيعها استخفافاً بحقها فلا عهد له إن شئت عذبته وإن شئت غفرت له » .

العهد من الله تعالى المالك لكل شيء ، وليست هناك قوة تبطل إرادته تعالى ، فهو العَهْد الحقّ الموثوق به ، والذى لا يتخلف أبداً .

فحين تعاهد ربك على الإيمان فإنك لا تضمن ما يطرأ عليك من الأغيار ، أما حين يعاهدك ربك على الجزاء ، فثقْ أنه نافذ لا يُخلَف .

لذلك ، فالنبى ﷺ لما أراد أن يمدحَ الإمام علياً رضى الله عنه قال : « أدعو الله أن يجعل لك عهداً فى قلوب المؤمنين »(١)

أى : حُباً ومودة فى قلوبهم ، وما دام أن الله أعطاه هذا العهد ، فهو نافذ مُحقَّق .

واختار هنا اسم الرحمن لما فيه من صفة الرحمانية التى تناسب المعونة على الوفاء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ ﴾

كلا : أداة لنفى ما قيل قبلها وإبطاله ، أى : قوله : ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [مريم] ثم يأتى ما بعد كلا حُجة ، ودليلاً على النفى .

وقد ورد هذا الحرف (كَلاَّ) فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا

---

(١) عن البراء بن عازب قال قال رسول الله ﷺ لعلىّ « قل : اللهم اجعل لى عندك عهداً ، واجعل لى عندك وداً ، واجعل لى فى صدور المؤمنين مودة » فأنزل الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم] قال : فنزلت فى على . ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥/٥٤٤) وقال ابن عباس : نزلت فى عبد الرحمن بن عوف . ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٣٢) .

مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ .. (١٧)﴾ [الفجر]

فالحق تبارك وتعالى ينفى الكلام السابق ؛ لأن النعمة وسَعَة الرزق ليست دليلَ إكرام ، كما أن الفقر وضيق الرزق ليس دليلَ إهانة ، فكلاهما ابتلاء واختبار كما أوضحتْ الآيات ، فإتيان النعمة فى حَدِّ ذاته ليس هو النعمة إنما النعمة هى النجاح فى الابتلاء فى الحالتين .

فقد يعطيك الله المال فلا تصرفه فيما أحلَّ الله ، فيكون لك فتنة وتخفق فى الاختبار ، إذن : لم يكرمك بالمال ، بل جعله لك وسيلة إغواء وإغراء ، فبيدك يتحوَّل المال إلى نعمة أو نقمة ، ويكون إكراماً أو إهانة .

وقوله تعالى[1] :

﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩)﴾ [مريم]

لقد جاءت كلمة (سَنَكْتُبُ) حتى لا يؤاخذه سبحانه وتعالى يوم القيامة بما يقول هو إنه فعله ، ولكن بما كتب عليه وليقرأه بنفسه ، وليكون حجة عليه ، كأن الكتابة ليست كما نظن فقط ، ولكنها تسجيل للصوت وللأنفاس ، ويأتى يوم القيامة ليجد كل إنسان ما فعله مسطوراً .

يقول تعالى : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾ [الإسراء] وهذا القول يدل على أنه ساعة يرى الإنسان ما كتب فى

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٣١٩/٦) : قوله تعالى ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ..(٧٩)﴾ [مريم] أى : سنحفظ عليه قوله فنجازيه به فى الآخرة ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩)﴾ [مريم] أى : سنزيده عذاباً فوق عذاب » .

الكتاب سيعرف أنه منه ، وإذا كنا نحن الآن نسجل على خصومنا أنفاسهم وكلماتهم ، أتستبعد على من علمنا ذلك أن يسجل الأنفاس والأصوات والحركات بحيث إذا قرأها الإنسان ورآها لايستطيع أن يكابر فيها أو ينكرها .

وقوله سبحانه : ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) ﴾ [مريم] أى : يزيده فى العذاب ، لأن المد هو أن تزيد الشىء ، ولكن مرة تزيد فى الشىء من ذاته ، ومرة تزيد عليه من غيره ، قد تأتى بخيط وتفرده إلى آخره ، وقد تصله بخيط آخر ، فتكون مددته من غيره ، فالله يزيده فى العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) ﴾

أى : فى حين ينتظر أنْ نزيدَه ونعطيه سنأخذ منه ﴿ وَنَرِثُهُ (٨٠) ﴾ [مريم] أى : نأخذ منه كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) ﴾ [مريم]

وقوله : ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) ﴾ [القصص]

فكأن قوله تعالى : ﴿ وَنَرِثُهُ (٨٠) ﴾ [مريم] تقابل قوله : ﴿ لأُوتَيَنَّ مَالاً (٧٧) ﴾ [مريم] وقوله تعالى : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) ﴾ [مريم] تقابل ﴿ وَوَلَدًا (٧٧) ﴾ [مريم] ، فسيأتينا فى القيامة فَرْداً ، ليس معه من أولاده أحد يدفع عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) ﴾

آلهـة : جمع إله ، وهـو المعـبـود والرب الذى أوجدك من عَـدَم ، وأمدّك من عُـدْم ، وتولاّك بالتربية ، فـعطاء الألوهية تكليف وعـبادة ، وعطاء الربوبيـة نِعَم وهِبَـات . إذن : فـمَنْ أوْلى بعـبـادتك ومَنْ أحقّ بطاعتك ؟

هؤلاء الذين اتخـذوا من دون الله آلهة من شـمس ، أو قمـر ، أو حجر ، أو شجر ، بماذا تعبَّدتكم هذه الآلهة ؟ بماذا أمرتكم ؟ وعن أى شىء نهتْكُم ؟ وبـماذا أنعمتْ عليك ؟ وأين كـانت وأنت جنين فى بطن أمك ؟

إن أباك الذى رباك وأنت صغير وتكفَّل بكل حاجياتك ، وأمك التى حمـلتْك فى بطنها وسـهرتْ على راحـتك ، هما أوْلَى الناس بطاعـتك ، ولا ينبغى أنْ تُقدِّم على أمرهما أمـراً . أما أنْ يستحوذَ عليك آخرون ، ويكون لهم طاعتك وولاؤك دون أبويْك فهـذا لا يجوز وأنت فى رَيْعان شبابك وأوْج قوتك .

لذلك ، من أصـول الـتـربيـة أنْ يُربَّى الآباء أبناءهم عـلى السـمع والطاعة لهم ، ونُحذِّرهم من طاعة الآخرين خاصة غير المؤتمنين على التـربية ، من العـامة فى الشـارع ، أو أصدقـاء السُّوء الذين يجـرُّون الأبناء إلى مَا لا تُحمد عُقباه .

والآن نُحـذِّر أبناءنا من السَّيْر مع شـخص مـجهـول ، أو قبـول طعام ، أو شراب منه . وما نراه فى عصرنا الحاضر يُغنى عن الإطالة فى هذه المـسـألة . هذه ـ إذن ـ مناعـة يجب أنْ تُعطَـى للأبناء ، كالمناعة ضد الأمراض تماماً .

وهكذا الحـالُ فيـمَنْ اتخـذوا من دون الله آلهـة وارتاحـوا إلى إله لا تكليفَ له ولا مشـقةَ فى عبـادته ، إله يتركـهم يعبدونه كـما يحلو

لهم ، إنهم أخذوا عطاء الربوبية فتمتَّعوا بنعمة الله ، وتركوا عطاء الألوهية فلم يعبدوه سبحانه وتعالى .

ولما كان الإنسان متديناً بطبعه فقد اختار هؤلاء ديناً على وَفْق أهوائهم وشهواتهم ، واتخذوا آلهة لا أمرَ لها ولا تكليفَ . ومن ذلك ما نراه من كثير من المثقفين الذين يأخذون دين الله على هواهم ، ويطيعون أعداء الله فى قضايا بعيدة كل البُعْد عن دين الله ، وهم أصحاب ثقافة وعقول ناضجة ، ومع ذلك يُقنعون أنفسهم أنهم على دين وأنهم على الحق .

ثم يقول تعالى : ﴿ لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ ﴾ [مريم] العز : هو الغَلَبة والامتناع من الغير ، بحيث لا ينال أحد منه شيئاً ، يقولون : فلان عزيز أى : لا يُغلب .

ولنا أن نسأل : ما العزة فى عبادة هذه الآلهة ؟ وما الذى سيعود عليكم من عبادتها ؟ لذلك يردُّ عليهم الحق تبارك وتعالى :

﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾

كلا : تنفى أن يكون لهؤلاء عِزٌّ فى عبادة ما دون الله ، بل ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم]

هذه الآلهة نفسها ستكفر بعبادتهم ، وتنكر أن تكون هى آلهة من دون الله ، وأكثر من ذلك ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم] أى : فى حين اتخذها الكفار آلهة من دون الله وطلبوا العزة فى عبادتها تنقلب عليهم ، وتكون ضِداً لهم وخَصْماً .

والضد : هو العدو المخالف لك ، والذى يحاول أنْ ينكِّل بك . وفى القرآن الكريم حوارات كثيرة بين هذه المعبودات ومَنْ عبدوها ، فمثلاً الذين عبدوا الملائكة واتخذوها آلهةً من دون الله : يسأل الله الملائكة : ﴿ أَهَـٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؟ [سبأ] فيُجيبون : ﴿ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ]

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا.. ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة]

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى عن هؤلاء : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الأحقاف]

إذن : ما ظنَّه الكفار عزّاً ومَنَعة صار عليهم ضداً وعداوة ، كالفتاة التى قالتْ لأبيها : يا أبتِ ما حملك على أنْ تقبلنى مخطوبة لابن فلان ؟ أى : ماذا أعجبك فيه ؟ قال : يا بُنَيّتى إنهم أهل عزٍّ وأهل جاه وشرف وأهل قوة ومنعة ، فقالت : يا أبت لقد قدَّرْتَ أن يكون بينى وبين ابنهم وُدٌّ ، ولم تُقدِّر أن يكون بينى وبينه كراهية ، فإن حدثتْ الكراهية سيكون ما قلته ضدك ، وستشقَى أنت بهذا العزّ وبهذا الجاه .

ومن الناس من اتخذ من المال إلهاً ، على حَدِّ قَوْل الشاعر :

وَللمالِ قَوْمٌ إنْ بَدا المالُ قَائلاً   أنَا المالُ قالَ القومُ إيَّاكَ نعبُدُ

وهؤلاء الذين يعبدون المال ، ويروْن فيه القوة ، ويعتزُّون به لا يدرون أنه سيكون وَبَالاً ونكالاً عليهم يوم القيامة : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة]

وهكذا ، كلما زاد حرصه على المال زاد كَيُّه . وتلحظ فى الآية الترتيب الطبيعى لموقف السؤال حين يقف السائلُ الفقير أمام الغنى اللئيم ، فأوَّل ما يطالع السائل يتغيَّر وجهه ، ثم يُشيح عنه بوجهه ، فيعطيه جَنْبه ، ثم يُدير له ظهره مُعْرضاً عنه ، وبنفس هذا الترتيب يكون العذاب ويكون الكيُّ والعياذ بالله . وينقلب المال الذى ظَنّ العزة فيه إلى نكَالٍ ووبَالٍ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأحقاف]

حتى الجوارح التى تمتعتْ بمعصيتك فى الدنيا ستشهد عليك : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور]

ذلك لأنك غفلتَ عمَّنْ كان يجب ألاَّ تغفل عنه ، وذكرت مَنْ كان يجب ألاَّ تذكره ، فالإله الحق الذى غفلْتَ عنه يطلبك الآن ويحاسبك ، والإله الباطل الذى اتخذته يتخلى عنك ويُسلمك للهلاك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾

الأزُّ : هو الهزُّ الشديد بعنف أى : تُزعجهم وتُهيجهم ، ومثْله النزغ فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف]

والأزّ أو النَّزْغ يكون بالوسوسة والتسويل ليهيجه على المعصية والشر ، كما يأتى هذا المعنى أيضاً بلفظ الطائف ، كما فى قوله

تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ(١) مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾ [الأعراف]

وهذه الآية : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ .. (٨٣) ﴾ [مريم] تثير سؤالاً : إذا كان الحق تبارك وتعالى يكره ما تفعله الشياطين بالإنسان المؤمن أو الكافر ، فلماذا أرسلهم الله عليه ؟

أرسل الله الشياطين على الإنسان لمهمة يؤدونها ، هذه المهمة هي الابتلاء والاختبار ، كما قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾ [العنكبوت]

إذن : فهم يُؤدُّون مهمتهم التي خُلقوا من أجلها ، فيقفوا للمؤمن ليصرفوه عن الإيمان فيُمحص الله المؤمنين بذلك ، ويُظهر صلابة مَنْ يثبت أمام كيد الشيطان .

وقلنا : إن للشيطان تاريخاً مع الإنسان ، بداية من آدم عليه السلام حين أبَى أن يطيع أمر الله له بالسجود لآدم ، فطرده الله تعالى وأبعده من رحمته ، فأراد الشيطان أنْ ينتقمَ من ذرية آدم بسبب ما ناله من آدم ، فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص]

وقال : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف]

وهكذا أعلن عن منهجه وطريقته ، فهو يتربص لأصحاب الاستقامة ، أما أصحاب الطريق الأعوج فليسوا في حاجة إلى إضلاله وغوايته .

لذلك نراه يتهدد المؤمنين : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف]

(١) الطائف من الشيطان : مسُّه للإنسان بالوسوسة فهو يأتيه من كل جهة ليضله ولا ينجيه منه إلا ذكر الله . [القاموس القويم ١/ ٤١٠] .

ومعلوم أن الجهات ست ، يأتى منها الشيطان إلا فوق وتحت ؛ لأنهما مرتبطتان بعزِّ الألوهية من أعلى ، وذُلّ العبودية من أسفل ، حين يرفع العبد يديه لله ضارعاً وحين يخِرُّ لله ساجداً ؛ لذلك أُغلقَتْ دونه هاتان الجهتان ؛ لأنهما جهتا طاعة وعبادة وهو لا يعمل إلا فى الغفلة ينتهزها من الإنسان .

والمتأمل فى مسألة الشيطان يجد أن هذه المعركة وهذا الصراع ليس بين الشيطان وربه تبارك وتعالى ، بل بين الشيطان والإنسان ؛ لأنه حين قال لربه تعالى : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص] التزم الأدب مع الله .

فالغواية ليست مهارة منى ، ولكن أغويهم بعزتك عن خَلْقك ، وترْكِكَ لهم الخيار ليؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، هذه هى النافذة التى أنفذ منها إليهم ، بدليل أنه لا سلطانَ لى على أهلك وأوليائك الذين تستخلصهم وتصطفيهم : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

وهنا أيضاً يثار سؤال : إذا كان الشيطان لا يقعد إلا على الصراط المستقيم ليُضلَّ أهله ، فلماذا يتعرَّض للكافر ؟

نقول : لأن الكافر بطبعه وفطرته يميل إلى الإيمان وإلى الصراط المستقيم ، وها هو الكون بآياته أمامه يتأمله ، فربما قاده التأمل فى كَوْن الله إلى الإيمان بالله ؛ لذلك يقعد له الشيطان على هذا المسْلك مسْلك الفكر والتأمل ليحُول بينه وبين الإيمان بالخالق عز وجل .

فالشيطان ينزغك ، إما ليحرك فيك شهوة ، أو ليُنسيك طاعة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ .. (٦٣) ﴾ [الكهف]

وقال : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٦٨ ﴾ [الأنعام]

وكثير من الإخوان يسألون : لماذا فى الصلاة بالذات تُلِحُّ علينا مشاكل الحياة ومشاغل الدنيا ؟

نقول : هذه ظاهرة صحية فى الإيمان ، لأن الشيطان لولا علمه بأهمية الصلاة ، وأنها ستُقبل منك ويُغفر لك بها الذنوب ما أفسدها عليك ، لكن مشكلتنا الحقيقية أننا إذا أعطانا الشيطان طرفَ الخيط نتبعه ونغفل عن قَوْل ربنا تبارك وتعالى :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. ۝٣٦ ﴾ [فصلت]

فما عليك ساعةَ أنْ تشعر أنك ستخرج عن خطِّ العبادة والإقامة بين يدى الله إلاَّ أنْ تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، حتى وإنْ كنت تقرأ القرآن ، لك أنْ تقطعَ القراءة وتستعيذ بالله منه ، وساعةَ أن يعلم منك الانتباه لكيده وألاعيبه مرة بعد أخرى سينصرف عنك وييأس من الإيقاع بك .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً باللص ؛ لأنه لا يحوم حول البيت الخرب ، إنما يحوم حول البيت العامر ، فإذا ما اقترب منه تنبَّه صاحب البيت وزجره ، فإذا به يلوذ بالفرار ، وربما قال اللص فى نفسه : لعل صاحب البيت صاح مصادفة فيعاود مرة أخرى ، لكن صاحب الدار يقظٌ منتبه ، وعندها يفرُّ ولا يعود مرة أخرى .

ويجب أن نعلم أن من حيل الشيطان ومكائده أنه إذا عَزَّ عليه إغواؤك فى باب ، أتاك من باب آخر ؛ لأنه يعلم جيداً أن للناس مفاتيح ، ولكل منا نقطة ضعف يُؤتَى من ناحيتها ، فمن الناس مَنْ

لا تستميله بقناطير الذهب ، إنما تستميله بكلمة مدح وثناء . وهذا اللعين لديه (طفاشات) مختلفة باختلاف الشخصيات .

لذلك من السهل عليك أنْ تُميِّز بين المعصية إنْ كانت من النفس أم من الشيطان : النفس تقف بك أمام شهوة واحدة تريدها بعينها ولا تقبل سواها ، فإنْ حاولتَ زحزحتها إلى شهوة أخرى أبتْ إلا ما تريد ، أما الشيطان فإنْ عزَّتْ عليك معصية دعاك إلى غيرها ، المهم أن يُوقِع بك .

فالحق تبارك وتعالى يُحذرنا الشيطان ؛ لأنه يحارب فى الإنسان فطرته الإيمانية التى تُلح عليه بأن للكون خالقاً قادراً ، والدليل على الوجود الإلهى دليل فطرى لا يحتاج إلى فلسفة ، كما قال العربى قديماً : البعرة تدل على البعير ، والقدم تدل على المسير .. سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟!

وكذلك ، فكل صاحب صنعة عالم بصنعته وخبير بدقائقها ومواطن العطب فيها ، فما بالك بالخالق سبحانه : ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك]

إذن : فالأدلة الإيمانية أدلة فطرية يشترك فيها الفيلسوف وراعى الشاة ، بل ربما جاءت الفلسفة فعقَّدتْ الأدلة .

ولنا وقفة مع قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ .. (٨٣)﴾ [مريم] ومعلوم أن عمل الشيطان عمل مستتر ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ[1] مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧)﴾ [الأعراف]

(١) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المناصرون . [القاموس القويم٢/٩٨].